بحوث منح الماجستير والدكتوراه

الصورة الفنية في شعر أبي مدين الغوث

أسماء عبد العال معتوق (*)

الصورة الفنية هي أساس البناء الشعرى، والخيال هو منبع الشاعر الذى يستمد منه أفكاره وتشبيهاته التي تنقل المُتلقي من صورة لأخرى، ومن معنى لمعنى آخر، فيُعبر عما بداخله من صور وخيالات تُضفى جمالًا لأشعاره، وتزيده منزلة بين الشعراء؛ خاصة عند الوصول إلى معان جديدة مبتكرة، ويعتمد على ذلك من خلال اللغة بما تحويه من الفاظ وعبارات " فاللفظ جسم، وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم: يضعف بضعفه ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصًا للشعر وهجنه عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ."[١]

لذلك من خلال اللغة يصوغ الشاعر صوره التي تُعبر عن مكنونه ونفسيته، وما يجول بخاطره من أفكار ومشاعر وأحاسيس وتجارب، ونظرة للحياة من منظاره الخاص، حيث إن " الصياغة والأسلوب بطريقة الأداء أو طريقة التعبير التي يسلكها الأديب؛ لتصوير ما في نفسه أو لنقله إلى سواه بهذه العبارات اللغوية "[٢]

التشبيه

يعد التشبيه وسيلة من وسائل التعبير البياني وهو أقربها إلى الفهم، حيث يشبه الشاعر شيء بشيء آخر؛ ليكون أقرب للفهم، ولقد عُنِيَ بدراسة التشبيه من قِبَل النُّقاد والبلاغيين قديمًا وحديثًا، فقد ورد في معجم أساس البلاغة

التشبيه لغة:

(*) هذا البحث من رسالة الماجستير الخاصة بالباحثة، وهي بعنوان: [البنى الأسلوبية في شعر أبي مدين التلمساني]، تحت إشراف: أ.د. سليمان محمد سليمان – كلية الآداب – جامعة سوهاج & أ.د. زياد محمد عبد العال جبالي – كلية الآداب – جامعة سوهاج & أ.د. نجوان كمال السيد – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

(١) العمدة، لابن رشيق القيرواني، ج١، ص ٧٠،٧١.

(٢) الأسلوبية والبيان العربي، محمد عبد المنعم خفاجي، ص ٤١.

"شبه: ما له شِبْه وشَبَهٌ وشبيه، وفيه شَبَه منه، وقد أشبه أباه وشابهه، وما أشبهه بأبيه. وفى الحديث " اللَّبنُ يُشَبَّهُ عليه ". وتشابه الشيئان واشتبها، وشبّهته به وشبّهته إيّاه، واشتبهتِ الأمورُ وتشابهتْ: التبست لإشباه بعضها بعضاً. وفى القرآن المُحْكَمُ والمتشابه. وشُبّه عليه الأمر: لُبّس عليه، وإيّاك والمشبَّهات: الأمورَ المشْكلات. ووقع في الشُّبْهة والشُّبُهات. وعنده أواني الشَّبَه والشَّبْه."(٣)

التشبيه اصطلاحا:

" صفة الشيء بما قاربه وشاكله، ومن جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه مناسبة كليّة لكان إيّاه ... والتشبيه والاستعارة جميعًا يخرجان الأغمض إلى الأوضح، ويقربان البعيد "(٤)

ومن خلال التعريف يتضح أن التشبيه الغرض منه هو محاولة تقريب صورة من صورة أخرى؛ لكشف الغموض إذ هو " تقريب المشبه من فهم السامع، وإيضاحه له أن تشبه الأدون بالأعلى إذا أردت مدحه، وتشبهه الأعلى إذا أردت ذمه " (٥) وقد وظَّف الشعراء التشبيه في أشعارهم لما له من قَدْر في إثراء القصيدة وقوة أبياتها.

فالتشبيه "مستدع طرفين، مشبهًا ومشبهًا به واشتركا بينهما من وجه، وافترقا من آخر، مثل أن يشتركا في الحقيقة ويختلفا في الصفة، أو العكس، فالأول: كالإنسانين: إذا اختلفا صفة: طولًا وقصرًا، والثاني: كالطويلين إذا اختلفا حقيقة إنسانًا وفرسًا."(٦) لذلك فالتشبيه يتكون من " طرفا التشبيه ووجه الشبه والغرض في التشبيه وأحوال التشبيه، ككونه: قريبًا أو غريبًا، مقبولًا أو مردودًا."(٧)

أدوات التشبيه:

(٣) أساس البلاغة، للزمخشري، مادة شبه.
(٤) العمدة، لابن رشيق القيرواني، ج١، ص ١٧٦.
(٥)المصدرالسابق، ج١، ص ١٧٦.
(٦) مفتاح العلوم، للسكاكى، ص ٣٣٢.
(٧) المصدر السابق، ص ٣٣٢.

للتشبيه أدوات يُعرف بها " أصل التشبيه مع دخول الكاف وأمثالها أو كأن وما شاكلها شيء بشيء في بيت واحد."[٨] كذلك قد يكون التشبيه صادقاً خالياً من الخيالات والوهميات وقد يكون غير ذلك " فما كان من التشبيه صادقاً قُلت في وصفه كأنه أو قلت ككذا، وما قارب الصِّدق قلت فيه تراه أو تخاله أو يكاد"[٩]

وللتشبيهات في ديوان أبى مدين الغوث جرسًا موسيقيًّا يُضفي بريقًا لأبياته الشعرية، ورونقًا ممتزجًا بالصِّدق في التعبير والتشبيه والقول، وكما ذُكِر من قَبْل ما كان من التشبيه صادقًا قلت في وصفة كأنه أو قلت كذا، أي: إنَّ الأصل في التشبيه دخول الكاف أو كأنَّ وما شاكلها في بيت واحد، ولأن الشاعر أبى مدين الغوث شاعر صوفي زاهد محب لله ورسوله فالصِّدق صفته وكلامه نابع من قلب صادق في المحبة مُخْلِص في العبادة مُعَبِّر عما يجول بداخله من مشاعر جيّاشه، لذلك كانت تشبيهاته بين الكاف وكأن وكما ومن أمثلة ذلك قوله: (بحر الطويل)

فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانِ عِشْتُ بِوَاحِدٍ وأَتْرُكُ قَلْباً فِي هَوَاكَ يُعَذَّبُ
وَلَكِنَّ لِي قَلْباً تَمَلَّكَهُ الهَوَى فَلا العَيْشُ يَهْنَى لِي وَلا المَوْتُ أَقْرَبُ
كَعُصْفُورةٍ فِي كَفِّ طِفْلٍ يَضُمُّهَا تَذُوقُ سِيَاقَ المَوْتِ والطِّفْل يَلْعَبُ [١٠]

شبه الشاعر قلبه الذي ذاق طعم الهوى بحلاوته في محبة الحبيب، ومرارته في بُعده عن المحبوب بالعصفور الذي ذاق مرارة الموت، بينما يلعب به الطفل فرحًا به سعيدًا بقُربه وضمه بين كفَّيه، وقد استخدم أداة التشبيه الكاف، ودخول الكاف في التشبيه هي الأصل؛ وذلك للتعبير الصادق عما لحق به وبقلبه في تقلّبه بين الهناء والشقاء، هناء القُرب والمحبة، وشقاء البُعد والشوق الذي يُذيب صاحبه.

وقوله: (بحر الخفيف)

وأُنَاجِي الإِلَهَ مِنْ فَرْطِ وَجْدِي كَمُنَاجَاةِ عَبْدِهِ زَكَرِيَّا[١١]

---

(٨) العمدة، لابن رشيق القيرواني، ج١، ص ١٧٧.
(٩) عيار الشعر، لابن طبا طبا العلوي، ص ٢٧.
(١٠) ديوان أبى مدين الغوث، ص ١٤.
(١١) المصدر السابق، ص٤٦.

ليس للإنسان إلا الله فهو المُنجى من المهالك، الرازق بغير حساب، الهادي إلى سواء الصراط، فالشاعر عَانَى من فَرط وَجْده وشوقه وحبه لخالقه، فما كان منه إلا مناجاة حبيبه وخالقه؛ ليخفف عنه معاناته ولِيَنْعَم بقُرب حبيبه، كما ناجى زكريّا ربّه؛ ليرزقه وليًّا بعد أن اشتعل رأسه شيبا، فكان ذلك من أصعب المُحال للعقل البشري، لكنه يسير بأمر من كان أمره بين الكاف والنون؛ فمن أجاب مُناجاة زكريّا ورزقه بِوَلِيّ بَعْد أن شاب رأسه قادر على إجابة مُناجاة الشاعر.

وقوله: (بحر الطويل)

لَقَدْ نَبَتَتْ فِي القَلْبِ مِنْكُمْ مَحَبّةٌ كَمَا نَبَتَتْ فِي الرَّاحَتَيْنِ الأصَابِعُ

حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي مَحَبَّةُ غَيْرِكُم كَمَا حُرِّمَت عَلَى مُوسى تِلْكَ المَرَاضِعُ[١٢]

عندما يهب الله_ سبحانه وتعالى_ الحياة للإنسان وهو في رَحِم أمه بعد أن كان نُطْفَة ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا ثم يكسو العظام لحما، ويصوره أحسن تصوير فَتَنْبُت الأصابع في راحة يديه شيئًا فشيئا، ولقد شبه الشاعر المحبة في قلبه لله_ عزَّ وجلّ_ بأنها نَبَتَتْ من فضل الله عزَّ وجلَّ.

واستخدم أداة التشبيه "كما"؛ وذلك لصِدق تشبيهه فكما أن الأصابع تنمو وتَنْبُت شيئًا فشيئا حتى تكتمل على أكمل وجه وأبهى صورة، كذلك نَبَتَتْ في قلبه محبة الله وزادت حتى ملأت قلبه وعقله وحياته سرًا وجهرًا، ووصل إلى نهاية المطاف فحرم على قلبه محبة غير الله كما حرم الله على سيدنا موسى_ عليه السلام_ المراضع، فأبى موسي الرضاعة إلا من أمه وكان له ذلك، كذلك لا أمل لمحبة غير الله في قلب الصوفي الزاهد، وهذا هو التشبيه الأمثل والأصْدَق لحال شاعر الحب الإلهي.

وقوله: (بحر البسيط)

نَاجَوكَ واللَّيْلَ حَلّاهُ بَهَاء سنا كَمَا يُحَلِّى سَوادَ اللِّمَّةِ الشمَطُ[١٣]

يُناجى المحبون لله في ظلمات الليل خالقهم وحبيبهم ورازقهم التقوى والصلاح، آملين عفوه ومحبته ولُقْيَاه، فهذا الليل ما أبهاه وما أحلاه بعد أن خالط سواده ضياء قلوبهم بِذِكْر ربهم، وامتلأ الهواء عبيرًا بمُناجاتهم فكسا ظلام

([١٢]) المصدر نفسه، ص٢٨.

([١٣]) اللمة: ما جاوز شحمة الأذن من الشعر، وقيل: شعر الرأس إذا كان فوق الوفرة لسان العرب، مادة لمم، والشمط : الشيب لسان العرب ،مادة شمط، ديوان أبى مدين الغوث، ص ٢٦.

الليل سحابة من نور أفواههم ذِكْرًا لربهم، فهذه الخطوط البيضاء التي تُلوِّن سواد الليل كالشَّيب الأبيض الذى يزيد صاحبه وقارًا وحكمة ومكانة ويُزيِّن سواد رأسه بشَيْب أبيض يكسوه.

تُعتبر " كأن " وما شاكلها من أدوات تشبيه الشيء بالشيء في بيت واحد، وقد وردت في الديوان في عدة أبيات، وتُعتبر أداة للتعبير عن صِدْق التشبيه وذلك أمثال قوله: (بحر الكامل)

تَحْيَا بِكُمْ كُلُّ أَرْضٍ تَنْزِلُونَ بِهَا وَكَأَنَّكُمْ فِي بِقَاعِ الأَرْضِ أَمْطَارُ
وتَشْتَهِى العَيْنُ فِيكُم مَنْظَراً حَسَنا كَأَنَّكُمْ فِي عُيُونِ النَّاسِ أَزْهَارُ
ونُورُكُم يَهْتدِى السَّارِي لرُؤيَتِهِ كأَنَّكُم فِي ظَلامِ اللَّيْلِ أَقْمَارُ [١٤]

وقوله: الأبيات السابقة أداة التشبيه " كأنكم" في بداية الشطر الثاني من كل بيت من الأبيات الثلاثة، فالشاعر في البيت الأول يُشَبِّه أصحابه وأحبابه من الزهاد العابدين العاكفين المحبين لله من شيوخه وقدوته في هذا الطريق _ الطريق إلى الله_ بالأمطار التي تُحيي الأرض بعد موتها، وتُنْبِت الزرع والخير الذى يهب الحياة للإنسان، فلولاه لما استطاع الإنسان الاستمرار، كذلك شيوخه الذين يَنْزِلون بالأرض فيزرعون البركة والمحبة والسلام في قلوب غيرهم، ويزرعون حب الله في قلوب المُريدين السالكين الطريق؛ فيُغيِّرون النُّفوس من الذنوب للطاعات كما تُغَيِّر الأمطار الأرض الجرداء إلى جنة زهراء.

أما في البيت الثاني فالشاعر يُشَبِّه شيوخه وأحبابه بالأزهار؛ ومن المعروف أن الزهور تُضفى سعادة وبهجة عند رؤيتها ويَبْعَث عبيرها الراحة إلى النَّفس، فالعين تشتهى كل ما هو جميل. كذلك خلق الله_ سبحانه وتعالى_ الأقمار والنجوم؛ لهداية الناس وإرشادهم في ظلمات الليل للطريق الصحيح، وهذا ما يفعله الزُّهاد في إرشاد غيرهم إلى الطريق إلى الله ومعرفة حق الله والسير في طريق الهدى والصلاح والتقوى؛ حتى يَلقى العبد مولاه فما أصدق تشبيهاته وما أجمل تعبيراته وعباراته!

وقوله: (بحر البسيط)

والأرْضَ مِنْ حُلَّةِ الأزْهارِ عارية كأنّها مَا تَحَلَّت بالنَّبَاتِ قَطُ

(١٤) المصدر السابق، ص ١٩.

وأنْتَ أكْرَمُ مِفْضَالٍ تُمَدُّ لَهُ أيْدِي العُصاةِ وإنْ جَاروا وإنْ قَسَطُوا[١٥]

الأزهار تُضفي الزينة والجمال لكل أرض تكسوها فَيَنْبُت ويَعُم الخير، كما أن الطاعات والعبادات تَعُم بالخير لصاحبها، وأيدي العُصاة الجائرين الخالين من الخير كالأرض العارية من الأزهار التي ما عَمَّ بها خير قط ولا نَبَتَ بها نبات، وهو خير تشبيه من الشاعر حيث شبه العصاة الخاليين من الخير بالأرض العارية من الزهر والنبات.

وقول الشاعر: (بحر الطويل)

حَضَرْنَا وغِبْنَا عِنْد دَوْرِ كُؤوسِنا وَعُدْنا كَأنَّا لا حَضَرْنَا ولا غِبْنا[١٦]

الخمر: كل مُسْكِر مُذْهِب للعقل وهو مُحرم في الإسلام. ولكن هناك خمر آخر يتلذذ به أهل التصوف ويَنْعَم به الزُّهاد وهو حلال بالنسبة لهم؛ وما أَحَلَّه هو اختلافه عن الخمر المُسْكِر، فَهُم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم في كل وقت ومكان، وما يزالون يذكرونه حتى يذهب عقلهم وتسمو روحهم عن المُلهيات والملذات والعَبَث الرَّث من أمور الدنيا، فيتفكرون في خلق السموات والأرض؛ فتصفوا أرواحهم؛ لتحلق في سماء الألوهية فيكشف لبعضهم عن بعض الأسرار الربانية والعلوم الإلهية ما قَدَّرَ الله لهم.

فيكون الزاهد المتصوف حاضرًا بجسده بين الناس غائبًا بروحه وعقله في ملكوت رب الناس، والوقت الجميل سرعان ما يُغادِر الإنسان؛ لذلك حضورهم بالجسد وغيابهم بالروح والعقل عند اجتراع خمر الذِّكر كمن لا حضر ولا غاب فهم الحاضرون الغائبون.

([١٥]) ديوان أبى مدين الغوث، ص ٢٦.

([١٦]) المصدر السابق، ص ٤٠.

الاستعارة

الاستعارة لغة:

"عير: يقال للموضع الذي لا خير فيه: (وهو كجوفِ العَيْر) وهو الحمار لأنَّه ليس في جوفه ما يُنتفع به...وقصيدة عائرة: سائرة، وما قالت العرب بَيْتاً أَعْيَرَ منه. وهِمّة عائرة. وتعاير القومُ: تعايبوا. ويقال: إن الله يُغَيِّر ولا يُعَيِّر. وعاير المكاييلَ والموازين: قايسها."[١٧]

الاستعارة اصطلاحا:

"ومن سنن العرب الاستعارة وهو أن يضعوا الكلمة للشيء مستعارة من موضع ةلالاؤس٢آخر."[١٨] وكذلك " أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدعيًا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالًا على ذلك بإثباتك للمشتبه ما يخفى المشبه به كما تقول في الحمام: أسد وأنت تُريد به الشجاع مدعيًا إنه من جنس الأسود"[١٩]

ولقد اهتم بدراستها النُّقاد قديمًا وحديثًا حيث إن " الاستعارة أفضل المجاز وأول أبواب البديع وليس في حلى الشعر أعجب منها وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها."[٢٠]

ولقد اهتم العربي القديم بفنون الأدب عامة والشعر خاصة وافرد اهتمامًا خاصًا باللفظ والمعنى، فعلاقة اللفظ بالمعنى كعلاقة الجسد بالروح، واستخدم العرب الفاظًا كثيرة للمعنى الواحد لذلك تعد " الاستعارة من اتساعهم في الكلام اقتدارًا ودالله ليس ضرورة، لأن الفاظ العرب أكثر من معانيهم وليس ذلك في لغة أحد من الأمم غيرهم، فإنما استعاروا مجازًا واتساعًا، ألا ترى أن للشيء عندهم أسماء كثيرة وهم يستعيرون له مع ذلك؟ على أن نجد أيضًا اللفظة الواحدة يُعَبَّر بها عن معان كثيرة نحو " العين " التي تكون جارحة وتكون الماء وتكون الميزان وتكون المطر الدائم الغزير وتكون نفس الشيء وذاته وتكون الدينار

([١٧]) أساس البلاغة، للزمخشري، مادة عير.
([١٨]) الصاحبي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، ص٣٩.
([١٩]) مفتاح العلوم، للسكاكى، ص٣٦٩.
([٢٠]) العمدة، لابن رشيق القيرواني، ج١، ص١٦٢.

وما أشبه ذلك كثير وليس هذا من ضيق اللفظ عليهم، ولكنه مع الرغبة في الاختصار والثقة بفهم بعضهم عن بعض. "[٢١]

وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدل على فصاحة العرب ومقدرتهم على الكلام البيان والبلاغة وسرعة البديهة والفهم والفطنة، وتمكنهم من لغتهم بما تحويه من فنون أدبية لا توجد في لغة غيرها، ومن ضروب الاستعارة التمثيل وهو " المماثلة عند بعضهم وذلك تمثيل شيئا بشيء فيه إشارة."[٢٢] وعلى غرار هذا التعريف يمكن القول بأن التمثيل والاستعارة من التشبيه "إلا إنهما بغير أداته وعلى غير أسلوبه."[٢٣]

" ويسمى المشبه به سواء كان هو المذكور أو المتروك مستعارًا منه واسمه مستعارًا والمشبه به مستعارًا له، والذي قرع سمعك من أن الاستعارة تعتمد إدخال المستعار له في جنس المستعار منه؛ وهو السر في امتناع دخول الاستعارة في الأعلام."[٢٤]

أقسام الاستعارة:

تنقسم الاستعارة إلى " مصرح بها ومُكنى عنها والمُراد بالأول هو أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به والمراد بالثاني: أن يكون الطرف المذكور هو المشبه، والمصرح بها تنقسم إلى تحقيقية وتخليلة والمراد بالتحقيقية: أن يكون المشبه المتروك شيئًا متحققًا إما حسيًّا وإما عقليًّا. والمراد بالتخيلية أن يكون المشبه المتروك شيئًا وهميًّا محضًا لا تحقق له إلا في مجرد الوهم، ثم تنقسم كل واحدة منهما إلى قطعية وهي أن يكون المشبه المتروك متعين الحمل على ما له تحقيق حسي أو عقلي."[٢٥]

أما في ديوان أبى مدين الغوث فقد كانت السمة الأسلوبية البارزة الغالبة التي ميزت استعاراته هي التشخيص، فعمد الشاعر إلى تشخيص المعاني ومظاهر البيئة الجامدة من حوله، ولقد كان توظيفه لظاهرة التشخيص في

([٢١])المصدر السابق ، ج١، ص١٦٥،١٦٦.
([٢٢])العمدة، لابن رشيق القيرواني ، ج١، ص١٦٨.
([٢٣]) المصدر السابق، ج١، ص١٧٠.
([٢٤]) مفتاح العلوم، للسكاكى، ص٣٧٠.
([٢٥]) المصدر السابق، ص٢٠.

ديوانه توظيفًا موفقًا نابعًا من صِدْق مشاعره وأحاسيسه. ومن أمثال توظيفه التشخيص لمظاهر البيت الجامدة قوله: (بحر الكامل)

بَكَتِ السَّحابُ فأضْحَكَت لِبُكَائِها زَهْرَ الرِّيَاض وفَاضَتِ الأنهارُ
قَدْ أقْبَلَتْ شَمْسُ النَّهَارِ بِحُلَّةٍ خضْرَا وَفِى أسْرَارِهَا أسْرَارُ
وأتَى الرَّبِيعُ بِخَيْلِهِ وجُنُودِهِ فَتَمَتَّعَت في حُسْنِهِ الأبْصَارُ
والوَرْدُ نَادَى بالوُرُودِ إلى الجَنَى فَتَسَابَقَ الأطْيَارُ والأشْجَارُ
والكَأسُ تَرْقُصُ والعُقارُ تشعشَعَتْ والجَوُّ يَضْحَكُ والحَبِيبُ يُزَارُ[٢٦]

أكثر الشاعر من سمة التشخيص في هذه الأبيات فقد صور السحاب بشخص يبكي على حاله، وصور الرياض بشخص يضحك مسرور بالأمطار التي تتساقط من دمع السحاب، كما صور الشمس التي تسطع في النهار وتملأ الكون نورًا وشروقًا بشخص أقبل وملأ الكون بالنور والشروق على أرضه الخضراء، كما صور الربيع بفارس يمتطى خيله والجنود خلفه في منظر حسن يُبهج ناظريه، وصور الورد بقائد ينادى على جنوده من الورود إلى أرض الجنان بينما ترقص الكاس كأنها شخص فرح سعيد في وسط ضحكات الجو عند زيارة محبوبه.

كما كان للدهر حظ في استعارته التشخيصية حيث قال: (بحر الطويل)

تِلِمْسَانُ دَارُ العِلْمِ سَاعَدَكِ الدَّهْر بِمَدْرَسَةٍ يَشْتَاقُها السَّعْدُ والفَخْرُ
تُذَكِّرُنَا قَوْماً تُنُوسِيَ ذِكْرُهُم قُرُوناً وَأهْلُ العِلْمِ حَقُّهُمُ الذِّكْرُ[٢٧]

فكان الدهر بمثابة الشخص الذي مَدَّ يد العَوْن والمساعدة لدار العلم " تلمسان " لتعلو مكانةً وعلمًا بين البلدان.

وقوله: (بحرالطويل)

ويَجْمَعُنا الدَّهْرُ الذِي حَالَ بَيْنَنَا ويَحْظَى بِكُمْ قَلْبِي وعَيْنِي تَرَاكُمُ[٢٨]

والدَّهر بمثابة الشخص الذي يجمع الحبيب بحبيبه بعد أن حال بينهما، وكان حاجزًا يحول بين اللقاء، كذلك كان للظواهر الطبيعية الجامدة في البيئة المحيطة ولغيرها من جماد مرتبط بالإنسان أثر في مقارنته التشخيصية فقوله: (بحر الكامل)

(٢٦) ديوان أبى مدين الغوث، ص٢٠.
(٢٧) ديوان أبى مدين الغوث ، ص١٩.
(٢٨) المصدر السابق، ص٣٦.

يا قَلْبُ زُرْتَ وَمَا انْطَوى ذاكَ الجَوَي عَجَباً لقَلبٍ بالنَّعيمِ قَدْ اكْتَوى
يا تُرْبَةً مَا مِثْلُها مِنْ تُرْبَة فيها الشِّفاءُ لِكُلِّ عَاصٍ والدَّوى
يا رَوْضَةً مَا مِثْلُها مِنْ رَوْضَة يا سَعْدَ مَنْ فِي جَنَّةِ المَأوى أَوَى[٢٩]

نلاحظ أن الشاعر أبا مدين الغوث قد شَخَّص (القلب، التربة، الروضة) في هذه الأبيات أي: صورها بشخص ينادى عليه ويحدثه ويمدح خصاله وشيمه، فينادى تربة الأرض المقدسة الأرض الذي نزل بها الرسول الكريم_ صل الله عليه وسلم_ وبها مات ودُفِنَ مادحًا واصفًا إيّاها بأنها أرض الدَّواء والشِّفاء لكل عاص كذا فعل مع الروضة الشريفة.

واستكمل أبو مدين الغوث مناداته واستعاراته التشخيصية حيث شخص الأزمات والكُروبات التي تحيط بالإنسان والشدائد كأنها شخص واقف أمامه، وحدَّثها مؤكدًا أنها مهما بلغت عنان السماء ستنفرج وتزول فحُسْن ظنه بالله ممتزج بها مزيل لها وذلك في قوله: (بحر البسيط)

يَا أَزْمَةُ الشِّدة العُظْمى سَتَنْفَرِجُ إنَّ الشَّدائِدَ مَقْرونٌ بِهَا الفَرجُ
يا أَزْمُ لَمْ أخْشَ مِنْها خَطْباً يُبْئِسُ وَحُسْنُ ظَنِّيَ باللهِ مُمْتَزِجُ[٣٠]

وقوله: (بحر المجتث)

فَلَم نَسْمَعْ وَلَمْ نَبْصِر إلّا هَوَاكَ لِي سَهْلا
حَتَّى إذَا مَا تَجَلَّى هَواكَ فِي قَلْبِي حَلّا[٣١]

فقد شخص الشاعر الهوى والحب بشخص له سمع وبصر تجلّى لقلب صاحبه، كذلك الأمر فقد شخص الهوى في موضع آخر من ديوانه في قوله: (بحر الطويل)

سَقَانِى الهَوَى كَأساً مِنَ الحُبِّ صَافِياً فَيَا لَيْتَهُ لَمَّا سَقَانِى سَقَاكُمُ[٣٢]

وقوله: هوى، بشخص سقاه كاسًا من الحب الصافي النَّقي الجميل العذب، ومن شدة سعادته بهذا الحب تمنى لمن سمعه أن ينال مثلما نال من الهوى، وأن يَسقى الهوى غيره من الناس كؤوس المحبة والصَّبابة والهوى.

([٢٩]) المصدر نفسه، ص٤٥.
([٣٠])ديوان أبى مدين الغوث ، ص ١٦.
([٣١])المصدر السابق ، ص٣٣.
([٣٢]) المصدر نفسه، ص٣٦.

وقوله: (بحر الطويل)

فَلَوْلا مَعَانِيكُمُ تَراهَا قُلُوبُنا إذَا نَحْنُ أيقاظٌ وَفِي النَّومِ إن نمْنا

يُحَرِّكُنَا ذِكْرُ الأحَادِيثِ عَنْكُمْ وَلَوْلا هَوَاكُمْ فِي الحَشَا مَا تَحَرَّكْنا

إذَا اهتزَّتِ الأرْوَاحُ شَوْقاً إلَى اللِّقَا تَرَقَّصَتِ الأشْبَاحُ يا جَاهِلَ المَعْنَى[٣٣]

خلق الله الإنسان يَعْقِل ويُدرك الأمور من حوله، فَيُبْصِر ويرى الأشياء بعينيه، يتحرك في الأجواء المحيطة من حوله، يهتز ويرقص فرحًا، وقد استشعر الشاعر هذه الصفات لغير صاحبها الإنسان فجعل القلب إنسان يرى المعاني في قوله: " فلولا معانيكم تراها قلوبنا "كذلك جعل الحركة بفعل الأحاديث كأنَّ الحديث شخص يحركه يمينًا ويسارًا، كذلك جعل الأشباح ترقص فرحًا وشوقًا للقاء الحبيب.

وقوله:

مِن أوَّلِ اللَّيْلِ قَدْ سَارَتْ عَزَائِمُهُمْ وفِي خِيَامِ حِمَى المَحْبُوبِ قَدْ نَزَلُوا[٣٤]

ويأتي التشخيص في هذا البيت للعزائم، حيث صور العزائم بشخص يسير من بداية الليل ويتكبَّل المتاعب حتى يصل إلى خيام المحبوب؛ كي تقر عينه برؤية محبوبه وما زال التشخيص يحتل الصدارة في

قوله: (بحر الكامل)

تَجِدِ الجَمِيعَ يُشِيرُ نَحْو جَلالِهِ بِلِسانِ حَالٍ أو لِسَانِ مَقَالِ [٣٥]

صور الحال والمقال بشخص له لسان يتحدث به ويخبر بجلال وعظمة محبوبه وقدرة الجليل العظيم، بينما نجده يشخص النسيم ويصوره بشخص يمر بجانبه فيُذَكِّره بالمحبوب الذي يشغل باله وقلبه ويراه في كل شيء يمر به فهو معه دائماً وابداً، كما صور الشوق الذي ملأ قلبه ووجدانه بشخص يسوق الهوى والحب إلى مقصده ومراده، ولا عجب في ذلك فالاشتياق يجتاح قلب صاحبه ويأخذه الحنين لذكرى محبوبه، ومهما حاول الإنسان جاهداً مقاومته لا يستطيع؛ كالغصن الذي يقف بوجه الرياح فيهتز معها ويميل مع الرياح رغمًا عنه، وقد شَخَّص الشاعر ذلك في قوله: (بحر الطويل)

([٣٣]) المصدر نفسه، ص٣٧.

([٣٤])المصدر نفسه ، ص ٣١.

([٣٥])ديوان أبى مدين الغوث ، ص٣٠.

وَيَذْكُرُنِي مَرُّ النَّسِيمِ بِعُرْفِها وَيُطْرِبُني الحَادِي إذَا بِاسْمِها غَنَّى
وَلاَ عُجْبَ مِنِّىَ الحَنينُ وذا الهَوَى إذَا سَاقَهُ شَوقٌ إلَى قَصْدِهِ حَنَا[٣٦]

كذلك شَخَّص القلوب فجعلها تهتز من شدة الفرح والسرور عند الاستماع للمحبوب؛ فقُرب القلب من محبوبه يجعله يقفز ويهتز من السعادة والبهجة .

وذلك في قوله: (بحر الطويل)

وتَهْتَزُّ عِنْدَ الاسْتِمَاعِ قُلُوبُنا وَإن لَّمْ نَجِدْ كَتْمَ المَواجِدِ صَرّحْنا[٣٧]

فقد جمع بين التشخيص والتجسيد في عدة أبيات منها:

ولَمَّا فَنَى صَبْرِي وقَلَّ تَجَلُّدِي وفَارَقَنِي نَومِي وحُرِّمَتُ مَضْجَعِي
وعِنْدِي شُهُودٌ للصَّبابَةِ والأسَى يُزَكُّونَ دَعْوَايَ إذا جِئْتُ أدَّعِي
سُهَادِي وَوَجْدي واكْتِئابِي ولَوْعَتِي وَشَوْقِي وَسُقْمِي واصْفِرَاري وأَدْمُعِي
وَإنْ سَجَنُونِي فِي سُجونِ جَفاهُمُ دخَلْتُ عَلَيهِمْ بالشَّفِيعِ المُشَفَّعِ[٣٨]

فقد صور الشاعر في الشطر الأول من البيت الأول الصبر بشيء مادى يفنى ويزول، كما صور تجلده وتحمله شيء مادى يقل من شدة صبابته وآساه، وبعد أنْ كان للتجسيد دوره البارز في الشطر الأول، كذلك كان للتشخيص دوره الفعال فالشطر الثاني فقد شخص النوم في قوله (فارقني نومى) فصوره بشخص يفارقه ويَغْرُب عنه بعد كان قريباً منه؛ وذلك من شدة لوعته ومحبته وصبابته، فالنوم سلطان يغلب صاحبه ولكن هذا السلطان خسر معركته وفارق صاحبه خاسرًا أمام سهاده وصبابته وآساه كما حرم مضجعه.

كما شخص الشاعر مشاعره شهود يشهدون على مدى حبه ووفائه وإخلاصه لهواه (السهاد والوجد والاكتئاب واللوعة والشوق والسقم والاصفرار والأدمع) وكان لترتيب شهوده روعة في الأداء؛ فكل مترتِّب على الآخر، فالسهاد والوجد يصحبه الحزن والاكتئاب ويزداد حتى يصل حزنه للوعة فالشوق الذى يتأرجح صاحبه يميل مع الهوى أينما مال، ولا يزال الشوق فاعلًا به ذلك حتى يسقم ويمرض من شدة شوقه لمحبوبه الذى يرجو لُقياه حتى تقر عيناه.

---

(٣٦)المصدر السابق ، ص٤١.
(٣٧) المصدر نفسه، ص٣٨.
(٣٨)المصدر نفسه ، ص٢٩.

وسقم الهوى يأتي بالاصفرار في الوجه؛ فالمريض نرى الإجهاد والتعب والاصفرار يظهر عليه ويزداد كلما زاد مرضه، وما حال مريض الهوى بعد ذلك إلا دموع عينيه التي تتساقط كحبات المطر على خديه محاولة جاهدة تخفيف ما به من سقم، ثم يجسد الشاعر الاشتياق الذى اجتاح الشاعر بشيء مادى يطول ويَقْصر، فيطول بِبُعْد محبوبه عنه ويَقْصر بِقُربه منه، ثم يشكو في الشطر الثاني الزمان الذى لا يوافيه بمن يهواه ويتخلى عنه في شدته ولوعته ولا يُقَدِّم يد العون والمدد له كما يفعل الصديق المخلص لصديقه وذلك في قوله: (بحر البسيط)

طَالَ اشْتِيَاقِي ولا خِلٌّ يُؤَانِسنى ولاَ الزَّمانُ بِمَا نَهْوَى يُوَافِينِي[٣٩]

وقوله: (بحر الطويل)

تَضِيقُ بِنَا الدُّنْيا إذا غِبْتُمُ عَنَّا وتَذْهَبُ بالأشْوَاقِ أرْوَاحُنَا مِنَّا[٤٠]

صور الشاعر الدنيا بشيء مادي يضيق، فهل حقا تضيق الدنيا وتتسع؟! نعم، تضيق الدنيا بالمُحب عند غياب محبوبه؛ فكلما زاد بُعد المحبوب كلما ضاقت الدنيا بما رحبت فلا يسعد ولا يهنى ويكون صدره ضيقًا حرجًا، أما القُرب يجعل سعادته تملأ الكون، ويشعر باتساع الكون من حوله، ويرى جمال الأكوان والأشياء، فالبُعد موت والقُرب حياة، أتى الشاعر بالتشخيص في الشطر الثاني من البيت حيث شبه الأرواح بشخص يذهب الأشواق تاركًا شاعرنا بالشوق، تاركًا إيّاه بلا روح وبلا حياة. قال الشاعر: (بحر البسيط)

دَاعِي التَّشَوُّفِ نَادَاهُم وأقْلَقَهُمْ فَكيف يَهْنَوا ونَارُ الشَّوقِ تَشْتَعِلُ[٤١]

نار الشوق تشكل صورة تشبيهية جميلة، حيث صور الشوق بشيء مادي يشتعل نارًا وذلك من باب التجسيد.

وقوله: (بحر الطويل)

وَلِى مُقْلَةٌ بالدَّمْعِ تَجْرِى صَبِيبَةً حَرَامٌ عَلَيْها النَّوْمُ حَتَّى تَرَاكُمُ[٤٢]

([٣٩])ديوان أبى مدين الغوث ، ص٤٣.
([٤٠]) المصدر السابق، ص٣٧.
([٤١])المصدر نفسه ، ص٣١.
([٤٢]) المصدر نفسه، ص٣٦.

صور الشاعر مقلة العين بسفينة تجرى بدمع العين من شدة الشوق مفارقة للنوم حتى تقر وتنعم برؤية الحبيب وذلك تجسيد للصورة وقوله: (بحر الطويل)

تَقُولُ أُنَاسٌ قَدْ تَمَلَّكَهُ الهَوى أَجَلْ لَسْتَ فِي لَيْلَى بِأَوَّلِ مَن جُنا[٤٣]

نلاحظ في هذا البيت تشخيص الشاعر للهوى حيث شبه الهوى بشخص يتملكه ويسيطر ويُهيمن عليه؛ حتى صار أسيرًا له وصارت تُضرب به الأمثال والأقاويل من الناس، فيقر الشاعر بذلك ويعترف بهواه الذي امتلك جوارحه ويبرر ذلك بأنه ليس بأول من أحب.

أهم النتائج

١)الصورة الشعرية في ديوان أبى مدن الغوث لها دلالات أثرت المعنى وزادته رونقًا وجمالًا وحسنًا فوق حسنها.

٢) تعددت أوجه البلاغة بين تشبيه واستعارة وكناية ...الخ.

٣) استعان الشاعر بأوجه البلاغة لإيجاد حلقة وصل بين ما حوله من مقومات طبيعة وبين أغراضه الشعرية؛ لخلق مفهوم جديد وصورة جديدة ترمز إلى بعض الأسرار التي لا تُباح، وعبّر عنها بالإشارة والرمز كـ (المرأة- الخمر - الكاس...الخ)

المصادر والمراجع

١)الأسلوبية والبيان العربى، د/محمد عبد المنعم خفاجى، د/محمد السعدى فرهود، د/عبدالعزيز شرف، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٢م.

٢) ديوان أبى مدين الغوث، إعداد وجمع وترتيب د/عبدالقادر مسعود، د/سليمان القرشى، كتاب ناشرون، بيروت، لبنان،٢٠١١م.

٣) الصاحبى في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، المكتبة السلفية، القاهرة/ ١٩١٠م.

٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيروانى أبو على الحسن بن رشيق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٩٨١م.

(٤٣)ديوان أبى مدين الغوث ، ص ٤١.

٥) معجم أساس البلاغة، أبى القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشرى، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م.
٦) مفتاح العلوم، يوسف بن أبى بكر بن محمد بن على السكاكى، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
٧) عيار الشعر، محمد أحمد بن طباطبا العلوى، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، مراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٥، ٢٠٠٥م.